كنانيش 3 -منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 87-102

جوانب من الديمغرافية التاريخية
من خلال رحلة المغامر الإسباني
خواكين غاثيل للمغرب 1861-1865

مصطفى الغديري
Mustapha GHADIRI

Aspects de démographie historique d'après le voyage de l'aventurier Joaquin Gazel au Maroc (1861-1865)

Résumé

Le voyageur et aventurier Joaquin Gazel séjourna durant quatre années au Maroc sous l'identité d'un citoyen Turc et en occupant le poste d'un officier de l'artillerie, ce qui lui a permis de visiter de nombreuses régions du pays.

Il réalisa à propos de ses voyages un rapport de services secrets au profit de l'Espagne et des pays européens. Le rapport contient de nombreuses et d'importantes données concernant la configuration démographique des endroits visités.

Joaquin Gazel and Moroccan Historical Demography in (1861-1865)

Abstract

Joaquin Gaezl, a traveller and adventurer, spent four years in Morocco assuming a Turbish identity. He worked as an artillery officer, a fact that allowed him to visit various regions of the country. His reports were done for the benefit of Spain and other European countries. They also include valuable demographic information relating to the places visited.

مخطط العرض

أولا : التعريف بصاحب الرحلة "خواكين غاثيل" الإسباني.
ثانيا : مضامين رحلته.
ثالثا : جوانب من الديموغرافيا التاريخية من خلال الرحلة.

أولا: التعريف بالرحالة

ولد خوان غاثيل في منطقة قطلونيا بإسبانيا سنة 1826م، ودرس العلوم القانونية بجامعة برشلونة. وفي المدينة ذاتها زاول مهنة المحاماة، غير أن طبعه كان أكثر ميلا إلى المغامرة والمجازفة منه إلى الحياة الهادئة والمستقرة التي تفرضها مهنة المحاماة، وهو ما جعله يفكر في القيام برحلات جغرافية وأسفار إلى المناطق المجهولة، فبدأ يعد العدة لذلك. وكانت أولى خطوة بدأ بها هي تعلم اللغة العربية، ولما استأنس من نفسه أنه أصبح يعرفها ترك مهنة المحاماة وشرع في تهييء رحلته. وكانت أولى محطة لذلك هي مدينة لندن التي توجه إليها سنة 1858م حيث قضى فيها سنة ليتوجه إلى باريس سنة 1859م. وفي هذه المدينة أتاحت له الصدفة أن يجد الجمعية الجغرافية تعلن عن جائزة محترمة لكل رحالة يعبر الصحراء الإفريقية من الجزائر إلى السنغال أو العكس، على شرط أن يمر بالمدينة الساحرة "تومبوكتو"، فكان حبوره عظيما، فتوجه إلى مرسيليا ومنها أبحر إلى مدينة وهران. وما أن نزل بوهران حتى نمي إليه أن هناك عدة رحالة يستعدون لهذه الرحلة المغامرة مما جعله يعرض عن المشروع.[1]

---

[1] _ أكثر هذه المعلومات استقيناها من كتاب خواكين غاثيل رحالة المغرب، تأليف فرناندو بلدراما مرتينيث، ط. دار الطباعة المغربية بتطوان سنة 1954م، النشرة العربية. وقد استقى المؤلف هذه المعلومات من يوميات خوان غاثيل التي تولت نشرها الجمعية الجغرافية بمدريد سنة 1879م، أي بعد وفاة الرحالة ببضع سنوات. وكذلك من كتاب ضون خوسي غافيرا الموسوم بـ"الرحالة الإسباني بالمغرب: ضون خواكين غاثيل (ينظر المرجع السابق الذي اعتمدناه ص: 7 لعدم توفر الرحلة الأصلية المكتوبة بالفرنسية أصلا).

وفي هذه الفترة كانت أخبار الصحافة بأوروبا تـــدور حـــول المغـــرب وموقعه وخيراته واحتياجاته وأعاجيب ما يرد من أخبار عنه. الأمـــر الـــذي شجعه على الاستعداد للتوجه إليه، فقصد جبل طارق فـــي 12 مـــارس 1861م ومن هناك عبر إلى مدينة طنجة.

وقبل أن يتوجه إلى المغرب عزم على الانخراط في الجيـــش المغربـــي وهي الخطة التي مكنته من التجول في كافة أنحاء البلاد وتسجيل اســـتطلاع عن هذا القطر.

وما أن وصل إلى طنجة حتى قدم كتيبا بلغة عربية متوسطة فـــي فـــن المدفعية إلى عامل هذه المدينة "السيد عباس أمقشد"[2]، كما أهدى إليه بندقيـــة مغربية في غاية البذخ صنعت بمدينة باريس، كان قد هيأها لهذا الغـــرض. إلا أن العامل رأى أن الأجدر بهذه الهدية هو الأمير العبـــاس شـــقيق الســـلطان مولاي محمد بن عبد الرحمان الذي كانت إقامته بطنجة[3].

بهذه الطريقة استطاع، في مدة وجيزة، أن يحظى بمقابلة الأمير مـــولاي العباس ويعرب له عن رغبته في الانضمام إلى جيـــش المخـــزن المغربـــي ليساهم في وحدة المدفعية التي يملك معرفة واسعة فيها، على حد قوله.

وقد استطاع بدهائه وخبرته أن يكسب رضى الأمير المولـــى العبـــاس الذي أرسله إلى فاس، بعد مدة وجيزة من دخوله المغرب، لينضم إلى حـــرس السلطان باسم "الضابط إسماعيل" في الفرقة المدفعية، وصـــار يـــترقى فـــي منصبه حتى أصبح يتلقى الأوامر مباشرة من وزير الحربيـــة، وتـــارة مـــن السلطان نفسه.

واستطاع الضابط إسماعيل أن ينال رضى المخزن المغربي ويســـتمر في هذه المهمة زهاء أربع سنوات سجل فيها رحلته عن المغرب والمغاربـــة، وعاد إلى إسبانيا في شهر سبتمبر 1865 بعد مغامرته العجيبة، وقد جمع فيـــها ثروة هائلة من المعلومات عن منطقة الغرب وعن سوس خاصة التي كـــانت

---

(2) ـ كان عباس أمقشد قائدا أو عاملا على مدينة طنجة في هذه المرحلة (ينظـــر كتـــاب المغرب وبريطانيا العظمى لخالد بن الصغير، مطبوعات كليـــة الآداب بالربـــاط، ضمـــن سلسلة رسائل وأطروحات رقم 34، 1997، ص. 173.

(3) ـ أخبار الأمير العباس توجد في كتاب المغرب وبريطانيا العظمى في القـــرن التاســـع عشر نفسه لخالد بن الصغير.(ينظر فهارس الأعلام، ص. 531).

شبه مجهولة لدى الأوروبيين. وهذه المعلومات استفادت منها كثيرا الجمعية الجغرافية بمدريد في تصحيح أسماء الأماكن والخرائط.

وعلى الرغم مما حقق غاثيل من هذه المغامرة التي لا تخلو من المجازفة، فقد رأى أنه لم يخلق للهدوء والسكينة. ففي سنة 1868م توجه مرة أخرى إلى الجزائر وتونس لمعرفة هذين القطرين. لكن المرض الذي أصابه كاد أن يذهب بحياته، فعاد إلى برشلونة.[4]

ثم ما لبث أن قرر العودة إلى المغرب للتوجه إلى منطقة وادي درعة لاستكمال معلوماته التي رأى أنه في حاجة إليها، فعبر البحر مرة أخرى إلى طنجة ووصل إلى العرائش، إلا أن القنصلية الإسبانية لم تسمح له بمتابعة سفره خوفا من أن يعرض حياته للخطر، بعد أن قدم خدمات جليلة للبحث الجغرافي بإسبانيا.

وجاءت سنة 1879م وغاثيل ما يزال يرغب في التوجه إلى إفريقيا لاستكمال المعلومات التي كانت التجارة الإسبانية بالجنوب في حاجة إليها، إلا أن الموت فاجأه بميناء قادس وهو يستعد للإبحار مرة أخرى إلى جنوب المغرب.

ثانيا : مضمون الرحلة[5]

تتناول الرحلة استطلاعا وافيا عن كل ما رآه وشاهده خواكين غاثيل من مناطق المغرب التي مر بها أو استقر بها مدة من الزمن خلال وظيفته كضابط للمدفعية بجيش المخزن المغربي، ابتداء من فاس ومرورا بمختلف المراكز والحواضر المغربية من مثل مكناس والرباط وصولا إلى مراكش. كما شارك في عدة حملات السلطان إلى المناطق التي ظهر فيها الشغب أو الخروج عن طاعته، ثم بعد ذلك طلب من السلطان إعفاءه من وظيفته ليتوجه إلى منطقة سوس بجنوب المغرب ليتجول ويتعرف عليها.

وقد بدأ مرحلته الثانية من هذه الرحلة يوم 30 من شهر يوليوز 1864م من مدينة الرباط بعد أن استجاب له السلطان محمد الرابع، واستعد لها أن

(4) _ خواكين غاثيل رحالة المغرب، نفسه، ص. 11_ 16.

(5) _ اعتمدنا في مضمون الرحلة على كتاب "خواكين غاثيل": رحالة المغرب للمؤلف فرناندو بلدراما المشار إليه من قبل.

يتوجه حرا بمساعدة بعض الأهالي لمختلف المناطق الذين لهم دراية بالمسالك الجغرافية وبالعادات والتقاليد واللغة حتى لا يصطدم مع الأهالي، وبخاصة منطقة وادي درعة التي كانت تعرف مناوشات مارا بمختلف المحطات والمراكز التي مر بها من الرباط إلى وادي درعة بمنطقة وادي النون التي كانت النقطة الأخيرة في رحلته بعد أن اخترق مناطق الصحراء المغربية، رغم كل المخاطر التي كانت تواجهه.

ثالثا: جوانب من الديمغرافيا التاريخية في الرحلة

على الرغم من المعلومات العلمية والجغرافية ومعرفة المسالك في القطر المغربي التي تتوفر عليها الرحلة، فإنها لا تخلو من الإشارات الديمغرافية المتعلقة بساكنة المناطق التي مر بها الرحالة، فضلا عن المعلومات العامة التي استقاها من أفواه المسؤولين وأفراد الجيش المخزني والأهالي الذين ربطتهم علاقة الصداقة بهذا الرحالة الإسباني . ويمكن استعراض ذلك تبعا لمراحل رحلته ومحطاتها الرئيسية الآتية :

أ _المرحلة الأولى من رحلته

إن هذه الرحلة تعج بجوانب هامة من الديموغرافيا التاريخية التي عرفها المغرب في هذه الفترة الحرجة من تاريخه، وهي أكثر من أن تحصى. لكننا سنقف، فقط، عند جوانب منها في مختلف المحطات التي مر بها.

_ **في فاس**(6): في هذه المحطة الأولى من حياته العسكرية بفرقة المدفعية بجيش المخزن المغربي، قدم لنا لائحة وزراء السلطان وفي مقدمتهم وزير الحربية وقائد الجيش العام السيد عبد الله بن أحمد، وكبار ضباط الجيش من أمثال مولاي أحمد الصويري والسيد محمد ابن خوجة... كما قدم المراسيم التقليدية لصلاة السلطان أيام الجمعة في المسجد الجامع، ووصف الموكب الرسمي للوفد الذي يصاحب السلطان إلى المسجد ذهابا وإيابا، والمعزوفات الموسيقية التي كانت تعزفها الفرقة العسكرية. وقد يفاجئنا الرحالة، كما فوجئ

(6) _ خصها المؤلف من ص. 17 -24 .

هو أيضا، بأن المخزن المغربي اتخذ النشيد الوطني الإسباني نشيدا رسميا عند العزف الموسيقي لعدم وجود نشيد خاص به.

وأورد أيضا ضمن مروياته وصفا لطقوس حفلات الزواج كما شاهدها بفاس وحضر في حفل عرس القائد العسكري محمد ابن خوجة.

ووصف وصفا دقيقا موكب السلطان وهو يتأهب لمغادرة مدينة فاس في اتجاه مدينة مكناس، هذا الموكب الذي يتشكل من كبار رجال الحكومة وعدة فرق عسكرية.

_ **في مكناس**[7]، يشير الرحالة إلى كيفية استقبال المواطنين لموكب السلطان عند دخوله المدينة ونزوله فيها وتجمهر الفلاحين حول المدينة احتفالا بمقدم السلطان، وبالأخص أن قدومه هذا صادف احتفالا بعيد الأضحى المبارك، فبلغ حشد عظيم من المواطنين الذين قدموا لحضور حفلة هذا العيد بجانب السلطان، حتى بلغ عدد الوافدين سبعة آلاف رجل من القبائل المجاورة والجنود النظاميين والقوات المخزنية وجمع غفير من سكان المدينة.

وسمحت الظروف للرحالة في هذه المدينة أن يصف مجموعة من العادات والحفلات الدينية والاجتماعية كحفلة عيساوة . كما أوضح المرض الذي اشتد بالجيش في هذه المدينة. وكان الرحالة إسماعيل واحدا من هؤلاء، إذ قضى عدة أيام على الفراش لا يستطيع أن يتحرك لاشتداد مرض الحمى عليه. مما أدى به إلى التأخر عن طابوره في موكب الجيش المرافق للسلطان، وبالتالي إلى أن يجرد من رتبته العسكرية ويفقد كل حقوقه كضابط، لينحدر إلى رتبة جندي عادي. لكن تعرفه على السيد "عبد السلام بن العربي" شريف وزان (رئيس الزاوية الوزانية) الذي كان يحظى بمكانة خاصة لدى المخزن توسط له ليستعيد رتبته التي كان قد جرد منها.

وخلال رحلته إلى الرباط قدم لنا وصفا بانوراميا لكل المناطق التي مر بها من مكناس إلى الرباط، دون أن يغفل المخاطر التي قد يصادفها كل من عبر هذه المناطق. ومن هذه المخاطر انتشار اللصوص وقطاع الطرق والحيوانات المفترسة التي تمتلئ بها الغابة الممتدة من أحواز مكناس إلى غاية ضفاف أبي رقراق.

---

(7) _ ص. 27 _ 34 .

_ **في الرباط**[8]: استطاع الضابط إسماعيل أن يكسب ثقة السلطان حين قربه وزير الحربية إلى هذا الأخير مقترحا عليهم مشروع بناء حصن لتركيب المدافع بالقرب من دار المخزن بجوار قصر السلطان. وما أن نجح الضابط إسماعيل في بناء هذا السور حتى دعاه السلطان وعينه قائدا على الفرقة المدفعية الخاصة بحرسه.

وبظهور الثائر الجيلالي الروكَي[9] في منطقة الغرب بشهر رمضان 1278هـ/ مارس 1862 م انضم الضابط إسماعيل إلى فيالق الحملة التي توجهت إلى تأديب القبائل المساندة لهذا الثائر بقيادة السلطان نفسه.

وفي هذه الحملة ترك لنا الرحالة يوميات حافلة بكثير من العادات والتقاليد التي شكلت موضوعات فنطازية للأوروبيين. من ذلك ما شاهد من وفود نساء من قبيلة بني حسن اللائي تقدمن بالأبقار هدية للسلطان، استشفاعا لعشائرهن وطلبا للصفح عن رجال قبيلتهن. لكن هذا لم يمنع المخزن من قتل بعض الرجال المشهورين بالتمرد وقطع رؤوسهم على مرأى ومسمع من السلطان، وجعل حقول المزارع مرعى لخيول جند السلطان في عز شهر رمضان من تلك السنة. كما قدمت مجموعة من رؤوس رجال الرحامنة كهدية للانتصار على العصاة يوم عيد الفطر.

وفي سياق هذه الحملة قدم لنا الرحالة لائحة برواتب جند السلطان، من ذلك:

_ حصة الحصان: 8 موزونات يوميا أو أوقيتان.
_ جندي من كافة الفرق: 8 موزونات.
_ مقدم ومعاون وبواق وطبال: 8 موزونات.
_ صف الضباط وقواد المائة: 10 موزونات.
_ قائد الرحى: 12م، و8 حصص للحصان.
_ قواد الطابور: 40 موزونة.

أما راتب الرحالة فهو أكبر راتب في المملكة، وليس هناك من درجة أعلى منه كقائد للطابور، إلا درجة وزير الحربية الذي يتقاضى هو أيضا 40 موزونة.

---

(8) _ ص. 37 _ 79 .

(9) _ لقد تحدث الناصري عن هذا الثائر بإفاضة وذكر أنه قتل في نفس السنة (ينظر الاستقصا، 9: 108-109) .

وأولاد السلطان هم أيضا يتقاضون نفس المرتب علاوة على الغذاء.
أما قيم العملة فيوردها كالآتي:
ستة فلوس أو قطع من النحاس تساوي موزونة، وأربع موزونات تساوي أوقية.
وعشر أوقيات أو أربعون موزونة تساوي مثقالا.
والريال يساوي اثنين وثلاثين أوقية ونصف.
أما الرواتب (أو المونة) فيقوم بتوزيعها أمناء الصندوق، وتعطى كل شهر أو ثلاثة أشهر علاوة تسمى "راتب " بمعدل 50 أوقية للفارس و25 للراجل...إلخ[10].

وخلال حملة السلطان هذه التي استمرت عدة أيام كانت حملة أخرى موازية لها قام بها الأمير مولاي الرشيد على قبائل الغرب في منطقة ورغة. وقد حقق الأمير فوزا ساحقا عليها وساق مئات من الأسرى مقيدين في الأصفاد، كما ساق الجند معهم قطعان من مواشيهم غنيمة للمخزن. ومن بين المساهمين في هذه الحملة الشريف عبد السلام بن العربي شريف وزان[11] الذي كان من كبار الإقطاعيين بالمغرب وله نفوذ واسعة توازي نفوذ السلطان، إن لم يكن أكثر منه سلطة على بعض المناطق.

ويأبى الرحالة إلا أن يمدنا بهذه الورقة الوجيزة عن هذا الشريف: "كان بلاطه يتألف من بعض الأقارب والأعيان والشرفاء، وكان حرسه الشخصي يتألف من سَرِيَّةٍ من الإسبان مسلحين ومجهزين على الطريقة الأوروبية. وكان رجال ثقته من اليهود المارقين من دينهم في بزات عسكرية مزركشة بالأشرطة الذهبية" كما كانت تروق له الأمتعة الأوروبية؛ وكان يحب الموسيقى، وكان عنده مِعْزَفٌ وعازف. وكان يلذ له الاطلاع عن الإخبار فاقتنى الجرائد وعمل من يترجمها له. وعندما يسافر كان في إمكانه أن يستعمل المحمل كالسلطان غير أنه كان يسافر على صهوة جواده. أما

---

(10) _ ينظر ص. 54 _ 56 .

(11) _ أخباره في مذكرات زوجته " الشريفة الوزانية أو سيرة إميلي كين كما حكتها " وجاءت صورة الشريف مطابقة لما جاء في الرحلة وقد ترجمها عبد الرحيم حزل ونشرها على صفحات جريدة العلم في حلقات في بحر سنة 2000 ، وهي في الأصل :
My Life Story : By Emily . Shareefa of Wazzan, London, Edward Arnold, 1911

الشعب فكان يجله ويحبه وعند مروره كان يلقى احترام الجميع الذين كانوا يقتربون منه ليقبلوا يده أو ركبته أو رجله...[12].

وخلال هذه الحملة التي استمرت مدة شهرين كاملين بقيادة السلطان نفسه لم ينس الرحالة أو الضابط إسماعيل أن يورد بعض العادات للقبائل التي مر بها أو أن يُعَرِّف بعض الأولياء ويتعرض لبعض المعتقدات التي تجعل هؤلاء يتمتعون ببعض الخوارق كـ "خوارق للا يطو" بمنطقة الغرب وقصتها مع الذئب ، والغرامات التي فرضها السلطان على القبائل الثائرة المتمثلة في 30 أوقية عن كل شخص من القبائل الثائرة، فضلا عن أعيان وفرسان هذه القبائل الذين سيقوا في الأغلال إلى السجون في انتظار مصيرهم المجهول.

ولدى عودة السلطان بجيشه إلى الرباط يقدم الضابط إسماعيل وصفا دقيقا لمدينتي الرباط وسلا، معددا أبوابهما ومساجدهما وأسوارهما وسكانهما كأن يسجل: "ويقيم في الرباط قناصل لعدة دول وربما كان عدد سكانها 12 ألف نسمة من بينهم ألفان أو ثلاثة آلاف يهودي يسكنون في حي منعزل غير أنهم يتمتعون بقسط وافر من الحرية فيها أكثر منه في غيرها من مدن المغرب. وأما التجارة مع أوروبا فضعيفة نظرا للصعوبة التي تلاقيها البواخر في عبور حاجز المرفإ... وأما مدينة سلا فيقدر عدد سكانها بثمانية آلاف نسمة من بينهم عدد ضئيل من اليهود"[13].

ولم تكد فتنة قبائل الغرب تهدأ بفعل ما فعلت الحملة التأديبية فيها حتى نمي إلى السلطان أن مدينة مراكش صارت محاصرة برجال قبائل الرحامنة، فبدأ الجيش في الاستعداد للتوجه إليها، فخرجت فرقة من المشاة يوم السبت 10 ماي من نفس السنة (1862م) تؤازرها فرقة المدفعية الثقيلة التي كانت مزودة ب "14 مدفعا"، وأربعة قنابل، ومدفع هاون صغير.

وبقدر ما كان يهتم الضابط إسماعيل بالمهمة العسكرية المنوطة به، كان اهتمامه أكثر بأن سجل ملاحظاته عن كل منطقة مر بها بدءا من القصبة الجديدة بمخرج الرباط ومرورا ب "قصبة بوزنيقة" ومركز "تمارة"، كما سجل أيضا انضمام رجال الشاوية إلى الجيش السلطاني تحت لواء قوادهم : ابن المشيش وولد الرشيد والكبير بن المدني والسيد الثكويك... كما لم ينس

---

(12) _ ينظر ص، 57 _ 58 ، ولقد جاء وصف الرحالة مطابقا لما جاء في أخبار هذا الرجل من خلال مذكرات زوجته التي أشرنا إليها من قبل .

(13) _ ص. 68 _ 69 .

أن يسجل نمط التعليم بالكتاتيب القرآنية في كل المناطق التي مر بها موكب السلطان.

وما كاد الموكب يقبل على مدينة الدار البيضاء حتى وصلت إلى السلطان ثلاثة رؤوس لكبار الرحامنة الثوار فعرضت في الأسواق، وكانت هذه الرؤوس ممزوجة بالقش والملح والكافور كي لا تفسد، ثم نقلت بعد ذلك إلى فاس ومكناس لتعرض على السكان ولتكون عبرة لكل من سولت له نفسه أن يقوم بالشغب، أو أن يدعو إلى العصيان.

ولدى وصوله إلى الدار البيضاء يخبرنا بما يلي:

"لم يكن للخبز من وجود في المدينة، إلا أنه توصل أخيرا أن بعض اليهود يبيعونه بريال إسباني لتسعة أرغفة ، وزن كل رغيف يربو قليلا عن نصف لبرة (لبرة = الرطل). وكانت عملة البلاد الفضية في الدار البيضاء تساوي 12 موزونة، مع أنها في الرباط 11 موزونة، وفي مكناس وغيرها من المدن تساوي 10 موزونة، إذ لم يكن للصرف قيمة محدودة ، بل كان خاضعا لما تراه المدينة مناسبا"[14].

ويخبرنا أن السلطان بمجرد ما أن أقبل موكبه على قبائل الرحامنة، حتى أمرَ بإيقاد النيران في المزروعات كإنذار للأعداء بأنهم ليسوا بعيدين عن موكب الحملة، وهو ما جعل غلال المزروعات نهبا لألسنة النيران بل امتدت إلى مساكنهم المتواضعة، ما دفع كثيرا من ساكنة ضفاف نهر أم الربيع يسارعون إلى تقديم الولاء كرها قبل أن تلتهم النيران معاشهم في الحقول وفي البساتين.

وما أن أقبل الموكب على الجبال المطلة على مراكش حتى بدأ الجيش في إعداد العدة لمهاجمة أفراد العصابات المحاصرة لعاصمة الجنوب. وتم تمركز الجيش بمكان يسمى "تمليليت"، ومن هناك انطلق إلى مرحلة أخرى إلى "زاوية بني ساسي" على بعد كيلومترات فقط من مراكش، وكان الجيش المخزني يتكون من تسعة آلاف رجل. فاشتدت المعارك بين الجانبين بجميع أصناف الأسلحة من بنادق ومدافع وسكاكين ، فقام العسكر بجز الرؤوس وجمع الغنائم من الأبقار والمواشي والشعير والدجاج والملابس، حتى إن بعضهم اقتلع الصفائح من حوافر الخيول الميتة، وبدا المعسكر _ على حد قوله _ محشرا للرعيان مع قطعانهم من المواشي.

(14) _ ص. 74 .

وأخيرا فتحت أبواب مراكش المنهوكة بعد أربعة أشهر من الحصار وبعد انتصار لم يكن سهلا استسلم فيها ما يزيد على 2000 من رجال الرحامنة اقتداء برؤسائهم الثلاثين الذين قدموا الخضوع فأثقلوا بالأغلال الحديدية فضلا عن آلاف الموتى من الجانبين.

أما ساحة المدينة، فتحولت إلى سوق لبيع المواشي التي غنمها الجنود وسلبوا كل قرية مروا بها.

- **في مراكش**[15]

وصادف هذا دخول السلطان مدينة مراكش عيد الأضحى، فكان الاحتفال مزدوجا: احتفال بالعيد، واحتفال بالانتصار، فأقيمت تظاهرة على أشلاء الموتى وجراح المعطوبين ونوح الأيامى، فعزفت الألحان بالساحات الكبرى، وأقيمت مسابقات الفرسان في الضواحي وقرعت الطبول وأطلقت عيارات المدافع. وفي هذه الأثناء توافد كبار قواد الرحامنة الذين نجوا من المعارك ليقدموا ولاءهم للسلطان، نادمين عما صدر منهم من الخطإ، فاستقبلهم رئيس الرحامنة الموالي للمخزن "ولد بلاح" أحسن استقبال، وشاركوا في الاحتفالات والفروسية. لكنهم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم وراء قضبان السجن لشقهم عصا الطاعة على السلطان.

ولم ينس السلطان في هذه المناسبة أن يصنع عرشا جديدا لأن العرش الذي كان يحتفظ به يعود إلى أسلافه كان قد تهالك في القدم، فكلف الضابط إسماعيل بهذه المهمة وفقا للحجم الذي أشار به السلطان، فكان كرسيا عرضه 80 سنتم وكذلك قعره وعلو ظهره 85 سنتيم.

ولم ينشغل الضابط إسماعيل بما شاهد عن تقديم وصف دقيق عن مدينة مراكش ليقدم لنا أسوارها وأبوابها وأبراجها وبساتينها ودكاكينها ومساجدها ومعاملها وقيسارياتها وفنادقها. كما قدم للقارئ الأوروبي وصفا دقيقا ومثيرا لساحة جامع الفنا الذي كان مسرحا لسباق الفرسان أيضا، لقطع الرؤوس وتعليقها على الباب الكبير للساحة، كما عرّف بحرف سكانها وعاداتهم وطقوسهم في مختلف المناسبات، وعدد سكانها من مختلف أهل الملل، منها هذه الورقة المجتزأة: "في مراكش 40.000 نسمة كما في فاس على ما أعتقد، ولو أن مساحة فاس أصغر، ويحكم مراكش قائد أو باشا، وهو اليوم

(15) _ ص. 80 _ 126 .

الجيلالي بن حمو الذي خلف ابن بوشتا الذي اعتقل في شهر يونيو 1863م... وفيها من اليهود نحو 3.000 أو 4.000 يهودي مثل العدد الموجود بمكناس، أما فاس فتعدادهم أكثر. ولليهود في مراكش عشرون بيعة (دور العبادة) وعدد كبير من مدارس الأطفال يتولى أمرها "شيخ" يهودي مكلف بشؤونها الداخلية. أما في باب الملاح فيوجد دائما قائد مسلم مكلف بالنظر في القضايا التي تقع بين المسلمين واليهود، ويقفل بابه ليلا... واليهود عاملون شغالون في جميع الجهات، وتوجد مقابرهم في الجهة الشرقية من المدينة قرب دار جماد... وقد دفع بعض اليهود للحكومة هذه السنة (أي سنة 1863م) ضرائب قدرها 14.000 مثقال، كما يدفع 5.000 مثقال لبيع البن، و 82.000 مثقال لبيع التبغ. وفي مراكش 74 مقهى، و 80 فرنا لطبخ الخبز".

وفي آخر هذه الورقة عن مراكش لم ينس أن يسجل احتياط السلطان في تنظيم فرقة عسكرية خاصة بمراكش بعد حصار الرحامنة، إذ وقع الاختيار على قائد يدعى عبد الكريم لرئاسة هذه الفرقة التي ستستقر في المدينة؛ وهي فرقة تتألف من 500 إلى 600 رجل نظامي تبقى تحت إمرة باشا المدينة، وتسكن معسكرا خاصا بها وسط المدينة، ويقود فرقة المدفعية عبد الرحمان الفرنسي (وهو ضابط فرنسي كان في الجيش المخزني ومستشارا للسلطان، وهو الذي قاد الوحدة المدفعية للجيش المخزني في معركة إيسلي الشهيرة سنة 1844م).

ب _ المرحلة الثانية من رحلته

تبدأ المرحلة الثانية من رحلته هذه بعد أن استجاب السلطان لطلبه من إعفائه من الخدمة العسكرية كضابط سام في الوحدة المدفعية، إثر انتهاء الحملة على مراكش وعودة السلطان إلى عاصمة ملكه الرباط، وعذره في ذلك أنه يريد أن يتجول في القطر المغربي ليتعرف عنه أكثر. وتبدأ هذه المرحلة من الرباط في اتجاه مناطق سوس التي لم يسبق له أن رآها. لكن في هذه المرحلة انطلق في صورة طبيب بمعية أحد الخدم، وكان تاريخ انطلاقه يوم 30 من شهر يوليوز 1864.

وتابع سيره من الرباط مرورا بالدار البيضاء فأزمور فالجديدة فموغادور (الصويرة) ليصل إلى أكَادير.

– **في أكَادير**: قدم عن هذه المدينة وصفا جغرافيا وتاريخيا وقال إن من الأجدر أن تسمى حصنا بدل المدينة إذ ليس له إلا باب واحد تحت البرج في اتجاه الجنوب وليس في أكَادير سوى أربعة أزقة موازية للأسوار التي تحيط

بها وبعض الدكاكين وبعض الدور القليلة للمسلمين وبعض اليــــهود، وعــدد سكانها ينحصر في 300 نسمة. وتتوفر على حاميــة عســكرية تتكــون مــن خمسين فردا عليها رئيس يسمى "السيد" يعمل تحــت إمــرة باشـا المدينــة، وبالقرب من الحصن يوجد حي يسمى " فونتي " يشتمل علـــى خمســين دارا وعدد سكانها 200 نسمة. ويتصل فونتي بأكَادير بواسطة شعب يحيط بـــالجبل ويمر على الميناء. ويمر من فونتي الطريق الوحيد الذي يؤدي من موغــادور إلى سوس ، مشيا على الساحل.

وتشتهر المدينة بمواد معيشة رخيصة وبالسمك اللذيذ وأكــثر منتوجــات البلد أركَان الذي يستخرج منه الزيت، وكذلك التين والعنــب. والخــبز فـــي فونتي رديء وماؤها صالح للشرب، وهي أقل بردا من أكَادير فـــي الشـــتاء لموقعها في الجهة السفلى من الجبل الذي يحجب الريـــاح التـــي تــهب مــن الأطلس.

_ **في وادي سوس:** ويقصد بوادي سوس المناطق التـــي وراء أكَــادير، رغم أن هذه المدينة من صميم الإقليم، وتعتبر تارودانت من أهم مدنه، آنذاك، تلك المدينة التي لم يستطع الوصول إليها إلا بعد مشقة وصعوبة نتيجة الفتـــن التي كانت قائمة بين بعض القبائل كقبيلة " أولاد السبع " التي يصعب المــرور بترابها من جهة، ووعورة المسالك في فصل الخريف لتغير المناخ واشـــتداد الأمطار وكثرة الحيوانات المفترسة من جهة أخرى. وبعد مدة تزيـــد علـــى الشهرين، استطاع أن يخترق مناطق: "أذرار إندرن" (الجبـــل الـــذي يتكلـــم) وضريح سيدي أحمد أموسى ليصل أخيرا إلى مدينة تارودانت يوم 30 نوفمــبر 1864م.

وكعادته، نقل إلينا لوحة جغرافية ولائحة إحصائية عـــن هـــذه المدينـــة الأثرية الجميلة. من ذلك ما ذكره من جوانــــب ديمغرافيـــة عنـــها، كقولـــه: "ولتارودانت خمسة أبواب، وهي: باب القصبة، وباب الخميس، وبـــاب أولاد بنونة، وباب تركونت أو تكونت، وباب الزركان..." وفي المدينة نحـــو مــن خمسة عشر أو ستة عشر فندقا يأوي إليها المسافرون للمبيت، ومن أشـــهرها فندق مولاي مصطفى الحسني. وفيها ثلاثة مساجد رئيسية. وفيـــها ســجنان كما فيها أربعة عشر فرنا، وليس هناك طاحونـــة لأن لكـــل فـــرد طاحونـــة صغيرة تحرك باليد. وهناك طاحونة كبيرة عمومية بوادي ســوس يســـتعملها السكان.

وفي المدينة عدد كاف من رجال الصناعة والخرازين والحدادين، وعدد كثير من مخازن المأكولات. لكن المواد الغذائية غالية الثمن. وتعقد السوق في أيام الخميس والأحد، ويفد إليها عدد كبير من سكان البادية. أما سكانها فينيف عن 8.300 نسمة، بما فيهم عدد من اليهود، وحيهم يقع في جنوب المدينة. وقائدها يدعى علال البركي ويعيش في المدينة نفسها، كما هناك قائد آخر يدعى سيدي حميدة يسكن القصبة، ولا يزيد عدد أفراد الحامية العسكرية عن مائتي جندي. ولم يلبث الرحالة أن غادرها يوم 30 نوفمبر بعد أن مكث فيها ستة أيام.

_ آخر محطة في رحلة غاثيل

كانت آخر هذه المحطات هي منطقة وادي درعة وبالضبط عند النقطة المعروفة بوادي نون مرورا بقرية "أدامنون" و "كونكا " و "أيد عيسى" و "أكَليو" ووادي إيفردا، وأيت باعمران، وإيغلمن ووادي الشبيكة ، مسجلا ملاحظات هامة عن الحروب الأهلية التي كانت قائمة بين القبائل الصحراوية على ضفاف وادي نون، منها قبائل أولاد نون وقبائل أولاد أزوافيت المجاورة لها.

ومن هذه النقطة قفل راجعا إلى موغادور بعد أن اخترق مناطق سوس مسجلا كل ما يتعلق بهذه القبائل من عادات وتقاليد وحروب وتعداد سكان كل مدشر ومركز ومدينة.

هذا، وقد سبق للرحالة أن نجا من موت محقق أثناء قطعه وادي نون سباحة لارتفاع مياهه، فارا بجلده من الأهالي الذين كانوا يترقبون حركاته في المنطقة[16].

والحق أن هذه الرحلة تعد من الصفحات الهامة التي سجلت كثيرا من الأحداث عن المغرب في القرن التاسع عشر بتصوير دقيق، كما قدمت لنا صورة واضحة عما كان يجري بالمغرب خلال هذه السنوات بين المخزن وبين سكان المناطق التي زارها، فضلا عما قدم لنا من أرقام توضح لائحة هامة من الإحصائيات قل أن نجدها في مصدر مغربي بهذا التفصيل والتدقيق.

---

[16] ص: 159 من المرجع نفسه .

وهناك شيء آخر يسترعي الانتباه وهي أخطاء الرحالة في رسم كثير من الأعلام الجغرافية نتيجة نطقه العجمي من جهة، وعدم الدقة في رسمها نتيجة الترجمة التي تعاقبت على مذكرات الرحالة من جهة أخرى. وهو ما يستدعي إعادة قراءة أو قراءات متعددة تكون بمثابة دراسة تحقيقية لكل ما جاء في الرحلة شكلا ومضمونا.